إختصاص معرفة تفسير القرآن بمن خوطب به

The specialty of knowing the interpretation of the Qur'an is addressed to him

أ.د محمد حسين علي الصغير [1]

Prof. Muhammed Hussein Ali Al-Saghir

نجاح حسين كطان[2]

Najah Hossein Gattan

المقدمة

يعرض القرآن جميع مطالبه بصورة معمقة تحتاج إلى التحليل العقلي أي كل متلق للخطاب يفهمه بحسب امكانياته وآفاقه وتطلعاته لمعرفة أسرار آياته وما لديه من أدلة يستند عليها لتقوية تفسيره[3]، وهنا سيعرض البحث أقسام المتلقين للنص القرآني وكيفية تأثر كل واحد منهم.

ولا شك أنَّ عملية التلقي للنص القرآني تختلف من شخص لآخر، من ثم يختلف التأثير والتحليل والتفسير له، فتلقي المؤمنين الموحدين وتأثرهم وفهمهم يختلف عن تلقي الكافرين أو المشركين أو المنافقين قطعاً، وإنَّ مقياس التلقي عند المؤمنين أنفسهم يختلف من حيث إذا كان المتلقي معصوماً –عليه السلام– أو إنساناً اعتيادياً، وهنا سوف ندرس التلقي من جهتين التلقي عند المعصوم–عليه السلام– والتلقي لغير المعصوم.

١– جامعة الكوفة.

٢– المديرية العامة لتربية كربلاء المقدسة.

٣– ينظر: محمد هادي معرفة، التمهيد في علوم القرآن: ٥/٢٢٠.

ولذا حاولت في هذا البحث بيان مستوى التلقي والفهم للقرآن الكريم عند المعصومين –عليهم السلام– وعند عامة الناس.

الكلمات المفتاحية: التلقي، تفسير القرآن الكريم.

Introduction

The Qur'an presents all its demands in an in-depth manner that requires mental analysis, that is, each recipient of the speech understands it according to his capabilities, horizons and aspirations to know the secrets of his verses and the evidence he has based on it to strengthen his interpretation, and here the research will display the recipient sections of the Quranic text and how each of them is affected.

There is no doubt that the process of receiving the Qur'anic text differs from one person to another, and then the influence, analysis and interpretation of it differs, so receiving the united believers and their influence and understanding differs from receiving infidels, polytheists or hypocrites definitely, and the scale of receiving among believers themselves differs in terms of if the recipient is infallible (upon him) Peace) or a normal person, and here we will study receiving from two sides: receiving at the infallible (upon him be peace) and receiving from the infallible.

المطلب الاول: إختصاص تفسير القرآن الكريم بالمعصومين –عليهم السلام–

إنَّ المتقصي جملة الأحاديث الواردة عن النبيّ المصطفى –صلى الله عليه وآله وسلم– وأهل بيته الكرام –عليهم السلام– يخرج بحصيلة مفادها إنحصار فهم القرآن الكريم بهم وحدهم دون غيرهم من البشر، ومن ثمَّ تنحصر مشروعية التفسير بهم دون سواهم، ويكون التفسير أمرًا توقيفيًا لا يخضع لاجتهادات وأفهام البشر العاديين، وليتضح الأمر اكثر نعرض جملة من هذه الأحاديث:

١– عن أُبيّ عن سعد عن ابن يزيد عن صفوان بن يحيى عن ابن حازم قال: قلت لأبي عبد الله –عليه السلام– : إنِّي ناظرت قومًا فقلت: ألستم تعلمون أنَّ رسول الله هو الحجة من الله على الخلق؟ فحين ذهب رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– من كان حجة من بعده؟ فقالوا :القرآن، فنظرت في القرآن فإذا هو يخاصم فيه المرجى والحروري و الزنديق الذي لا يؤمن حتى يغلب الرجل خصمه، فعرفت أنَّ القرآن لا يكون حجة إلا بقيِّم، ما قال فيه من شئ كان حقا، قلت: فمن قيم القرآن؟ قالوا: قد كان عبد الله بن مسعود وفلان وفلان وفلان يعلم، قلت: كله؟ قالوا: لا فلم أجد أحدا يقال: إنّه يعرف ذلك كله إلا علي بن أبي طالب –عليه السلام–، وإذا كان الشئ بين القوم وقال هذا: لا أدري، وقال هذا: لا أدري، وقال هذا: لا أدري وقال هذا: لا أدري فأشهد أنَّ عليا بن أبي طالب –عليه السلام– كان قيم القرآن... (٤).

٢- عن محمد بن يحيى، عن بعض أصحابه، عن هارون بن مسلم، عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله -عليه السلام- قال: قال أمير المؤمنين -عليه السلام-: (أيها الناس إن الله تبارك وتعالى أرسل إليكم الرسول صلى الله عليه وآله وأنزل إليه الكتاب بالحق الى ان يقول ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق لكم، أخبركم عنه، إن فيه علم ما مضى، وعلم ما يأتي إلىيوم القيامة، وحكم ما بينكم وبيان ما أصبحتم فيه تختلفون، فلو سألتموني عنه لعلمتكم...) [٥]

٣- عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد عن النضر بن سويد، عن أيوب بن الحر، عن عمران بن علي، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله -عليه السلام- قال: (نحن الراسخون في العلم، ونحن نعلم تأويله). [٦]

٤- عن علي بن محمد، عن عبد الله بن علي، عن إبراهيم ابن إسحاق عن عبد الله بن حماد، عن بريد بن معاوية، عن أحدهما -عليهما السلام- في قول الله عزوجل: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) فرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أفضل الراسخين في العلم، قد علمه الله جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئا لا يعلمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه. [٧]

٥- عن الحسين بن سعيد عن سعد بن طريف قال: كنت جالسا عند أبي جعفر -عليه السلام- فجاءه عمرو بن عبيد فقال: أخبرني عن قول الله تعالى الى أن يقول ((فإذا احتاجوا إلى تفسيره فالاهتداء بنا وإلينا... [٨] وكذلك ماورد عنه -عليه السلام- أنه قال: ((ما يستطيع أحد أن يدَّعي أن عنده جميع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء [٩]

٦- عن محمّد بن سنان عن زيد الشحّام [١٠] قال: دخل قتادة بن دعامة على أبي جعفر الباقر -عليه السلام- فقال: يا قتادة أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال: هكذا يزعمون. فقال أبو جعفر -عليه السلام-: بلغني أنّك تفسّر القرآن؟ فقال له قتادة: نعم.فقال الباقر -عليه السلام-. بعد حوار واختبار لقتادة: ويحك يا قتادة إن كنت إنّما فسّرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وإن كنت قد أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت. ثمّ قال -عليه السلام-: ((ويحك يا قتادة إنّما يعرف القرآن مَن خُوطب به)) [١١]

---

[٥]- فرات بن ابراهيم الكوفي، تفسير فرات: ٩١ والحر العاملي وسائل الشيعة: ١٤٩/١٨.
[٦]- فرات بن ابراهيم الكوفي، تفسير فرات: ٩١ والحر العاملي وسائل الشيعة: ١٤٩/١٨.
[٧]- فرات بن ابراهيم الكوفي، تفسير فرات: ٩١ والحر العاملي وسائل الشيعة: ١٤٩/١٨.
[٨]- فرات بن ابراهيم الكوفي، تفسير فرات: ٩١ والحر العاملي وسائل الشيعة: ١٤٩/١٨.
[٩]- الكليني، الكافي: ٢٢٨/١
[١٠]- زيد بن يونس، وقيل: ابن موسى، الفقيه أبو أُسامة الأزديّ، الشحام، الكوفيّ. وقد ورده في بعض الروايات بعنوان: زيد أبو أسامة = زيد الشحام (... كان حياً بعد ١٤٨ هـ) ينظر: محمد الجواهري، المفيد في معجم رجال الحديث: ٢٣٩
[١١]- الكليني، الفروع من الكافي: ٨ /٣١١ ح٤٨٥.

٧- ما ورد عن الإمام الصادق -عليه السلام- في حديث أنّه قال لأبي حنيفة: أنت فقيه العراق؟ قال: نعم. قال: فبِمَ تفتيهم؟ قال: بكتاب الله وسنّة نبيّه -صلى الله عليه وآله وسلم-، قال: يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حقّ معرفته؟ وتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: نعم.

قال -عليه السلام-: (يا أبا حنيفة لقد ادّعيت علماً، ويلك ما جعل الله ذلك إلاّ عند أهل الكتاب الذين أُنزل عليهم، ويلك ولا هو إلاّ عند الخاصّ من ذرّية نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله، وما ورّثك الله من كتابه حرفاً) [١٢].

٨- باب عدم جواز استنباط الأحكام النظرية من ظواهر القرآن إلا بعد معرفة تفسيرها من كلام الأئمة فيه ثمانون حديثا [١٣].

٩- باب إنه لا يعرف تفسير القرآن إلا الأئمة [١٤].

١٠- إنما يعرف القرآن من خوطب به. [١٥]

١١- "في بيان ما يدل على أن علم تأويل القرآن بل كله عند أهل البيت والأخبار في هذا الباب أكثر من أن تحصى" [١٦].

١٢- قد وردت أحاديث متواترة تزيد علىٰ مائتين وعشرين حديثاً، دالة علىٰ عدم جواز ورود استنباط الأحكام النظرية من ظواهر القرآن إلا بعد معرفة تفسيره من كلام الائمة -عليهم السلام-، والتفحص عن أحوالها، والقطع بأنها محكمة أو متشابهة، ناسخة او منسوخة عامة او خاصة، إلىٰ غير ذلك[١٧].

وفي ضوء هذه النصوص وما ورد بمضامينها. بغض النظر عن اسانيدها. نجد أنّهم -عليهم السلام- يؤكّدون أنّ معارف القرآن الكريم قد خصت بطبقة معيّنة، تتمثّل بمَن انزل عليه القرآن، وبمَن ورث علمه.

وقد ذهب جملة من متأخري علمائنا الى هذا المعني فمنهم على سبيل المثال لا الحصر:

السيد حسين البروجردي (ت ١٣٨٠ هـ) حيث قال "اعلم أنَّ علم القرآن مخزون عند أهل البيت وهو مما قضت به ضرورة المذهب" [١٨].

---

[١٢]- الكليني، الاصول من الكافي: كتاب الحجّة، باب أنّه لم يجمع القرآن كلّه إلاّ الأئمّة -عليهم السلام-: ٢٢٨/١.
[١٣]- ينظر الحر العاملي وسائل الشيعة: ١٢٩/١٨..
[١٤]- ينظر: الحر العاملي وسائل الشيعة: ١٤٩/١٨و ينظر الحر العاملي، الفصول المهمة: ١٧٣.
[١٥]- ينظر:محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي:٤١٥/١٢ والحر العاملي، سائل الشيعة: ١٣٦/١٨ والفيض الكاشاني، تفسير الصافي:٢١/١ البرهان ١٨/١ والمجلسي، بحار الأنوار: ٢٣٧/٢٤.
[١٦]- هاشم البحراني، مقدمة تفسير البرهان: ١٥.
[١٧]- ينظر الحر العاملي، وسائل الشيعة:٣٥/٢٧
[١٨]- البروجردي، تفسير الصراط المستقيم: ١/ ٢٧٠.

السيد الخوئي –قدس سره– حيث قال "إنّ المراد من هذه الروايات وأمثالها أنّ فهم القرآن حقّ فهمه، ومعرفة ظاهره وباطنه وناسخه ومنسوخه، مختصّ بمن خوطب به...." ثم يضيف بعد ذلك "فهم المخصوصون بعلم القرآن على واقعه وحقيقته، وليس لغيرهم في ذلك نصيب"(١٩).

وكذلك الفيض الكاشاني في تفسير الصافي يفرد إحدى مقدمات تفسيره لهذه المسألة وهي: المقدمة الثانية "في نُبَذٌ مما جاء في أن علم القرآن كله إنما هو عند أهل البيت –عليهم السلام–" (٢٠).

وستتضح الاجابة عن هذا الإشكال في المطلب الآتي.

المطلب الثاني: مستوى تلقي القرآن الكريم عند المعصوم

إنَّ علم التفسير هو علم لتلقِّي مفهوم النص القرآني وإدراكه؛ لذلك لابد من البحث في مستويات هذا التلقي، وقبل ذلك لابد من القول أنَّ القرآن الكريم قد نزل بلغة مثالية مشتركة، أخذت بالكثير من اللهجات العربية القديمة، مخاطباً فئة نموذجية هم العرب، متحديًا إياهم فيما برعوا فيه، فعجزوا عن معارضته، أو الإتيان بمثله، أو بأصغر سورة منه، بل وعجزوا حتى عن وصفه، أو تصنيفه، وتفيد الكثير من الروايات أن بعضهم –أي العرب– أسلم بعد وقع القرآن على أذنيه، أما بعضهم الآخر فقد إتَّهم الرسول الكريم –صلى الله عليه وآله وسلم– بالسحر وقول الشعر(٢١).

والقرآن الكريم سوّى بين المؤمنين والكافرين به، وفي تأبّيه على الإدراك والاستيعاب لديهم، وكذا وجود شيء غامض في الذات عند كلا الجانبين جراء تلقي هذا النص الفريد، ثم يختلف الفريقان من حيث تسويغ هذا التأثّر ويفرقان في ردة الفعل الذي يحدثه التأثير. وقد وجد النص من يرفع عنه الهمة ويخرجه من الظلمة، وأقصد عدم استيعابه عند عامة الناس، فظهر مفسرون حملوا على عاتقهم تفسيره آياته وتأويلها. قال عليه الصلاة والسلام: "القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجه"(٢٢).

معنى التلقي لغةً

إنَّ لفظ التلقي في اللغة هو من "فلان يتلقى فلاناً أي يستقبله "(٢٣)، ولاقاه، وتلقاه، لقياناً وملاقاة وتلقياً، صادفه وقابله واستقبله، تلقّي الضيوف: استقبالهم، تَلَقّي الأَوامِرِ: تَسَلُّمُها، وتلقي الكلمات: استقبالها بالأخذ و القبول والعمل بها أي إن تلقي الشي هو استقباله وتسلمه (٢٤).

١٩– أبو القاسم الخوئي،البيان في تفسير القرآن: ٢٦٨، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٣٩٥ هـ، بيروت.

٢٠– ينظر: الفيض الكاشاني،تفسير الصافي: ١/١٩.

٢١– أمينة طيبي، مقالة:النص القرآني وأنواع المتلقين، عود الند:مجلة ثقافية فصلية،العدد ١٢لسنة ٢٠١٩.

٢٢– جلال الدين السيوطي، ١٩٩٩، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: فواز أحمد زملي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان٢/٤٤٦–٤٤٧.

٢٣– ابن منظور، لسان العرب: ١٣/٢٢٥.

٢٤– ينظر: الأزهري، تهذيب اللغة: ٣/٢٧١، الطريحي، مجمع البحرين: ١/٢٧٢.

معنى التلقي اصطلاحاً

وأمَّا في الاصطلاح فيدخل التلقي تحت صفة النظرية اي نظرية التلقي فهي: مجموعة من المبادئ والأسس النظرية التي تهدف الى الثورة ضد البينونة والوصفية، واعطاء القارئ الدور الجوهري في فهم النص، فهو يعيد الانتاج والتكييف والاستيعاب للمعنى، فقد عُبِّر عن هذا اللفظ بمصطلحات حديثة وألفاظ متباينة ومشتركة بالمعنى العام، وكلها تدل على فهم الخطاب من قبل المتلقي[٢٥]، وعبّر عن المتلقي بمسمَّيات متعددة فهو "المستجيب للنص وهو المستقبل وهو الفاهم والمتقبل أيضا وهو المرسل إليه وهو المخاطب وهو السامع والقارئ.... إلى آخر السلسلة من الأسماء والمسميات" [٢٦]، أي إنَّه عن طريق عملية التلقي يظهر من الذي تُوجَّه إليه الرسالة ألا وهو المتلقي، فيحل رموزها ويترجمها إلى معانيها، ويكون ذلك في ضوء خبراته من قبلُ عن محتوى الرسالة.

والهدف الرئيس لهذه النظرية هو بيان العلاقة بين النص والمتلقي [٢٧]، وأضاف ايزر إلى أهمية رصد الكيفية التي بها يتم التفاعل بين النص والقارئ، وبيّن ياوس أنَّ النص لا يفهم إلا بفهم تجسيداته وتحقيقاته عبر التأريخ [٢٨].

ونظرية التلقي هي "بنية منتجة تفضي إلى إنتاج الدلالات الأدبية وتقود إلى القراءة المفتوحة القادرة على فك شفرات النص ودعمه بطابع حي يستوعب آفاقاً غير نهائية من التأويل ضمن وعي نقدي فاعل" [٢٩] وقيل: "هي معنى مزدوج يشتمل على الاستقبال او التملك والتبادل معاً" [٣٠].

إنَّ من مزايا هذه النظرية أنَّها عملية فاعلة في الفهم والتقييم واعادة الانتاج [٣١]، فقد أعطت المتلقي السلطة الأكبر، والاهتمام به، فينشئ فرصاً أكثر بين النص ومتلقّيه "حيث اتخذ الاهتمام بدور القارئ في دراسة النص الأدبي حيزاً كبيراً ومهماً في الدراسات النقدية الحديثة.... فقد تم تجاوز النظرة السائدة التي

---

[٢٥]- ينظر: سمير سعيد حجازي، مصطلحات النقد الادبي المعاصر:١٤٥.

[٢٦]- روبرت سي هولب، نظرية الاستقبال مقدمة نقدية، ترجمة رعد عبد الجليل جواد:١٩.

*- هانز روبرت ياوس (Hans Robert Jauss): ناقد ألماني معاصر واستاذ متخصص في الآداب الفرنسية ممثل ما يسمى/ جامعة كونستانس التي تدور أعمالها حول مفهوم تلقي العمل الفني، وهو المؤسس لنظرية التلقي، بتأثير من هرمينوطيقا غادامير، وكان يهتم بدراسة خارجية النصوص، وقد ظهر اتجاهه عندما ألقى محاضرة عام ١٩٦٧، عنوانها لماذا تتم دراسة الأدب؟ في جامعة كونستانس بألمانيا، من أهم مؤلفات هذا الناقد كتاب جمالية التلقي. ينظر: بشرى موسى صالح، نظرية التلقي أصول وتطبيقات:٣٠.

*- فولفغانغ آيزر(Wolf gang Izer): أحد رواد نظرية الاستقبال البارزين، عمل أستاذاً في كونستانس الألمانية،وهو يدرس اللغة الإنكليزية والفلسفة واللغة الألمانية حيث اهتم بدراسة النص من الداخل واضطلع هو وزميله ياوس بمهمة إصلاح الدراسات الأدبية، من خلال المحاضرات والبحوث والمؤتمرات التي انتهوا فيها إلى فكرة النظرية الجديدة هذه. ينظر:محمود عباس عبد الواحد، قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي دراسة مقارنة،: ص٣٤.

[٢٧]- ينظر: بشرى موسى صالح، نظرية التلقي أصول وتطبيقات، ص٣٠.

[٢٨]- ينظر: كريمة بلخامسة، إشكالية التلقي في اعمال كاتب ياسين (اطروحة دكتوراه) باشراف امنة بلعلي:٢.

[٢٩]- بشرى موسى صالح، نظرية التلقي أصول وتطبيقات:٢٩.

[٣٠]- هانز روبرت ياوس، جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي:١٠١.

[٣١]- ينظر: محمد عزّام، التلقي والتأويل:٧٩.

كانت تنظر في العلاقة القائمة بين المبدع والقارئ على أنها علاقة منتج ومستهلك" [٣٢] أي إنَّها "فسحت المجال أمام ذات المتلقي للدخول في فضاء التحليل، وإعادة الاعتبار إلى (القارئ) أحد أبرز عناصر الإرسال أو التخاطب الأدبي" [٣٣]، فاستطاع المتلقي أخذ مكانته الجديد بوصفه مخاطَبًا أو قارئًا في الدراسات الحديثة، فأصبح محللاً وناقداً ومستنبطاً بعدما كان مستمعاً، وأهميته مهملاً في العملية الإبداعية عن طريق تفكيك أنظمة النص الغامضة واعادة تشكليها تشكيلاً فنياً.

فالذين يتبنون هذه النظرية يقولون إنَّ القرَّاء لوحدهم يؤولون النص ولا دخل للنص والمؤلف بإظهار المعنى "فالقارئ فقط هو الذي يحدث عنده المعنى ويحدثه ومن دون هذا الدور لا يوجد نص أو لغة أو علاقة أو مؤلف" [٣٤]، هذا ما يسمى موت المؤلف، واعطاء القارئ سلطة لا حدود لها يفعل بالنص ما يشاء، ويفسره كيف يشاء، فهو من ينتج المعنى، لا يكشف عنه، وينتهي به فيكون هنا بمثابة الشريك للمؤلف في اظهار المعنى، وباستطاعته الاضافة للنص اذا لزمته حاجاتهم النفسية[٣٥]، ويكون ذلك بالاعتماد على القيم الجمالية التي يضمها النص، مبرزاً ما يحويه النص من الموضوعات النحوية والصرفية والدلالية وغيرها التي تدرس في الألفاظ والكلمات، وكذا يقف على جمالية التعبير فيحوِّل ما يفهمه إلى تفسير وتأويل للنص[٣٦]،ويتضح هنا أنَّ أصحاب هذه النظرية أهملوا المبدع للنص وبيان صفاته ومن هو، واهتموا بالنص وقارئه، وعدُّوه الأهم في فهم الخطاب وتفسيره وتحليله فيبني المعنى على وفق معرفته الخاصة.

إنَّ هذه النظرية بهذا المعنى ليست صحيحة؛ لأنَّ المتلقين للنص ليسوا على تساوٍ في الفهم والمعرفة، فقد لا يصلوا أو يصلوا بصعوبة ولا يستطيعون مهما حاولوا معرفة المعنى الذي أراده القائل للنص أياً كان النص – قرآني أو بشري– وأنَّ كلاً منهم يفسر النص على وفق معرفته الخاصة وديانته ومذهبه إلى غير ذلك من الأمور، فنجد المتلقي يتأثر بالتأثيرات الخارجية، وتطبيقها على النص لتلائم مصالحه، فيستشهد بالآيات القرآنية، بل ويلوي عنق النص أحيانا لتصبح ملائمة لآرائه وأهوائه ويوجهه لتأييد ما نشأ عليه من معتقد، أو ما تبناه من فكر، أو ما اتبعه من مذهب، أو ما ناسب زمانه الحاضر، وإنْ كان تفسيره مخالفاً لما قيل في الماضي وإلى غير ذلك من الأسباب التي ترفض أنْ يكون المتلقي للنص هو المسيطر وهو المنتج للمعنى دون المؤلف له [٣٧].

---

[٣٢]– موسى سامح ربابعة، جماليات الاسلوب والتلقي:٩٩.
[٣٣]– بشرى موسى صالح، نظرية التلقي أصول وتطبيقات:٣٣.
[٣٤]– روبرت شولز، السيمياء والتأويل:٣٢.
[٣٥]– ينظر: صبحي ابراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية:١/١١١.
[٣٦]– ينظر: ايمان عبد زيد، مستويات التلقي للخطاب القرآني عند المفسرين (رسالة ماجستير) باشراف محمد البكاء:١١.
[٣٧]– ينظر: عبد الإله حوري الحوري، اسباب اختلاف المفسرين في تفسير آيات الأحكام (رسالة ماجستير) باشراف احمد يوسف سلمان:٣٢-٣٥.

وقد بين الجرجاني (ت:٤٧١هـ) هذا الأمر إذ أكد في (دلائل الأعجاز) أنَّ المتلقي ليس له أثر في إضفاء المعنى، ويبقى عليه أنْ يبحث عنه عِبْرَ اللفظ نفسه، فالتشبيه والاستعارة كلها تستدعي تأويلاً لا يقود إلى ابتكار المعاني الخاصة بالقارئ، بل إلى استخراج المعاني التي وضعها المتكلم وراء ألفاظه أي إنَّه يعطي صاحب النص سلطة أكبر من القارئ؛ لأنَّه أعرف بالمعنى، فهو صاحب الحقيقة فقط وغرضه هو اثبات النظرية الاعجازية للقرآن الكريم، فهو كلام الله المعجز الذي يختلف عن كلام البشر، وكل ما وضع فيه له قصد ودلاله يريدها الله تعالى لا يستطع المتلقي وحده أنَّ يبرزها [٣٨].

وقد تثار تساؤلات كثيرة عن وجود أصول لنظرية التلقي في القرآن سواء أكانت في الجوانب التنظيرية أم في الجوانب التطبيقية، وعند تقصي نصوص القرآن الكريم نجد هناك دلالات كثيرة عن مفردة التلقي أي أصولها موجودة عن طريق الآيات القرآنية، ففي قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[٣٩]، وقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٤٠] وقوله ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٤١] وقوله ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٤٢] وغيرها من الآيات القرآنية التي تدل على وجود صلة بين النص القرآني والمتلقي، والتلقي له مكانة بارزة إذ يمثل"جانبا مهما من جوانب عملية التكلم والكلام والمتلقي. والنص القرآني خاصة، والنص عامة موجه للمتلقي، كي يتفكر فيه ويعمل فيه عقله ومشاعره"[٤٣] تأثره بالنص أيضًا، لكنْ التأثير في المتلقين يختلف بين متلقي وآخر؛ فمنهم من يكون تأثره الى الصواب كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[٤٥]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[٤٦]، على خلاف بعضهم ممن يكون تأثره مصاحباً لآثار عكسية سيئة كما في قوله تعالى:﴿أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ

---

[٣٨]- ينظر: حميد الحميداني، المقصدية ودور المتلقي عند عبد القادر الجرجاني:بحث نشر ضمن أعمال ندوة قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية:١٤٩-١٥٢، http://master-lettresarabe.blogspot.com/p/blog-page.html.

[٣٩]- النمل: ٦.

[٤٠]- البقرة: ٣٧.

[٤١]- فصلت: ٣٥.

[٤٢]- المزمل: ٥.

[٤٣]- صبحي ابراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية: ٢١٣/٢.

[٤٤]- الأنفال: ٢

[٤٥]- التوبة: ١٢٤.

[٤٦]- مريم: ٥٨

وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٤٧]، فعن طريق هذه الآيات الدالة على تأثر المتلقي بالنص يدل على أنَّ النص هو الذي يحركه نحو القراءة والتدبر[٤٨].

لا يمكن لأحدٍ أنْ ينكر تأثير النص في المتلقي، فالنص هو المسيطر على المتلقي، ولكن الدراسات الحديثة للنص قامت بتوسيع دائرة المتلقي في النص وعدّه العنصر الرئيس. فالمتلقي يمثل "جانبا مهما من جوانب عملية التكلم والكلام والتلقي. والنص القرآني خاصة، والنص عامة موجه للمتلقي، كي يتفكر فيه ويعمل فيه عقله ومشاعره، ولا شك أنَّ النص يكتسب حياته من خلال المتلقي، إذ هو الذي يفك شفرة ذلك النص ويستخرج ما فيه كل متلق بحسب ثقافته وأفقه ومعرفته بعالم ذلك النص وسياقه، ذلك الأفق الذي يمكِّنه من إدراك ما في النص من أفكار ومبادئ وجماليات وأيضا يمكنه من ملء الفراغ الكامن بين عناصر ذلك النص، على وجه الخصوص ما يتصل بحذف الكثير من العناصر في النص. وهنا تبرز مهمة المتلقي"[٤٩].

وقد جاء القرآن بأعظم الأساليب وأشدها استثارة لطاقات الإنسان ومكوناته من حيث العاطفة والفكر والروح والوجدان وهذا مخالف لما يدّعيه أصحاب النظريات الحديثة بأنَّ المتلقي هو المسيطر على النص، فقائل النص هو الأول والمسيطر على معنى النص الذي قاله، وما على القارئ أو السامع سوى فهم المعنى لا اكتشافه[٥٠].

وهذا لا يدل على تقدم المتلقي على النص القرآني على الرغم من أهميته، فليس المتلقي هو الذي يحرك النص القرآني بإرادته، بل النص هو المسيطر وهو الذي يحرك المتلقي، وسنلحظ ذلك عن طريق الأثر الذي يتركه النص على المتلقين عند قراءته على الرغم من تعدد مستويات الفهم والإدراك، فالنص القرآني هو الذي يحرر وسائل التلقي الإدراكي في الإنسان، مما يحفز آفاق المتلقين للقراءة، فهو يختلف عن النصوص البشرية.

وقد استعمل القرآن الكريم أساليب متنوعة لها فوائد التأثير على قلب المتلقي فاستطاع أنْ يفهم الخطاب الإلهي وما أراده من بيان التشريعات وألأحكام، ونلحظ التَّغاير بين أساليب التَّخاطب — النِّدائي– وسياقه بين من نودي من الأنبياء –عليهم السلام– ونداء نبينا محمَّد–صلى الله عليه وآله وسلم– وتعدَّدت تبعاً لذلك مستويات الخطاب على وفق تعدد السِّياق الخارجي، وأحوال المخاطبين المتلقين للنص، فعندما كان خطاب الباري بنداء النبي

---

[٤٧]– التوبة: ١٢٥.

[٤٨]– ينظر: ايمان عبد زيد، مستويات التلقي للخطاب القرآني عند المفسرين (رسالة ماجستير) باشراف محمد البكاء:١٥–٢٣.

[٤٩]– صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية:٢/ ٢١٣.، دار قباء– القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.

[٥٠]– ينظر: عبد القادر محمد الحسين، معايير القبول والرد في تفسير النص القرآني:١٤٤، حسين الحاج حسن، النقد الأدبي في آثار أعلامه: ١٢٧.

لم يقل (يا محمد) بل ناداه (يا أيها النبي)، ففي هذا تأمل وانتباه شديد ومراعاة لما يُريده الباري بعد هذا النداء مما يجعل المتلقي للنص في حالة استعداد شديد ينبع من الدهشة وشدة الانتباه.

ففي هذا الأسلوب تأثير شديد على قلب المتلقي سواء كان سامعاً أو قارئا وغيرها لزيادة تعظيم شأن النبي محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– وتقديره وتخصيصه بقيادة الأمة من دون غيره، وفيه تعليم الأمَّة بالأدب في حضرة المصطفى –صلى الله عليه وآله وسلم– وذكره مع الإجلال، فلا يدعوه دعاء بعضهم بعضا، ولا يرفعوا أصواتهم عنده إلى غير ذلك من ملامح التَّأدب معه، فافتتاح السورة بنداء النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– فيه تمهيد ومفاجئة لهم، وهذا مصدر من مصادر التشويق في النص القرآني فتثير الشَّوق في نفس المتلقّي ليتابع الأحداث ويتجدَّد نشاطه وتزيد حدة الانفعال[٥١]، وعليه يكون النص القرآني، المؤثر في المتلقي له والمسيطر عليه.

فالنص القرآني يفرض سلطته على المتلقي فهو يستخدم المعاني والأساليب التعبيرية وغيرها لتفعيل القارئ وتحريكه ودفعه لتلقي النص. "فقد جاء القرآن الكريم بأعظم الأساليب روعة وجمالاً وأشدها استثارة لطاقات الإنسان ومكوناته جميعاً، فكراً وقلباً، وعقلاً، وضميراً، وفؤاداً، وعاطفةً وروحاً وأحلاماً ووجداناً..."[٥٢].

وإنَّ "الموجه الأكبر لعملية التلقي والذي أعطاها سمة منهجية منذ وقت هو القرآن الكريم؛ فلم يمض على نزوله إلّا سنوات حتى ظهرت على إثره، وتحت تأثير أسلوبه بواكير علمية نضجت فيما بعد على شكل علوم مرسومة الحدود، واسعة المعالم، كعلم التفسير، وعلم أصول الدين، والفقه والعلوم اللغوية" [٥٣]، أي إنَّ النص القرآني يمتاز بأنَّه أصل التفاعل والتأثير في النفوس لتهيئتها للإيمان ويتبين ذلك عِبر صياغته من لدُن الباري عزَّ وجلَّ بعدِّه الخالق المهيمن الذي وضع القرآن نصاً وخطاباً؛ ليخاطب النفس الإنسانية ويتعامل معها لتقبل ذلك الخطاب الذي هو عبارة عن قيم ومثل منبعثة من الذات الإلهية.

ويكون التفاعل مع النص من جوانب مختلفة في إطار تتواصل فيه اهتمامات المتلقي، ويكون ذلك عن طريق تقصي دلالة الآيات التي تخص مادة التلقي التي فيها إشارات على التفاعل والتواصل كما في قوله تعالى:﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [٥٤]، فالتلقي باللسان يدل على القراءة والتكلم وغيرها وكلها من وسائل التفاعل والتأثير، وإنَّ العلماء

---

[٥١]– ينظر: فرح باقر احمد الفاضلي، العدول في القرآن الكريم على وفق نظرية التلقي –دراسة منهجية نقدية– (بحث منشور على الشبكة العنكبوتية) http://www.maqalaty.com/2767.html.

[٥٢]– حسين الحاج حسن، النقد الأدبي في آثار أعلامه:١٢٧، المؤسسة الجامعية للدراسات والطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

[٥٣]– يادكار لطيف الشهروزي، جماليات التلقي في السرد القرآني:٢٢.

[٥٤]– النور: ١٥.

اهتموا بهذا الأمر، ولم يتغافلوه فميزوا بين إلقاء النص وإرساله وتلقّيه أو استقباله فآثروا الإلقاء والتلقي وجعلوهما فناً واحداً وخاصة في مجال النص الخطابي[٥٥].

فنظرية التلقي لم تهمل المبدع ولم تفقده سلطته فيظهر هذه السلطة عن طريق النص "إنّ النصوص تفرض سلطتها على القارئ والتي تتجلى في مظاهر تتعلق بالأدوات الإجرائية التي يسخرها السارد لنصه. والقرآن العظيم بما منح من مقومات مختلفة يقع في أعلى سلم الآثار الأدبية الخالدة من حيث غناه في أشكال التعبير التي ينهض عليها من عذوبة في السرد وكرم في الإيقاع، وجودة في العبارة، فضلاً عن المعاني الشريفة التي يعرضها ويرغب فيها. ولذلك تأتي هذه المقومات جميعاً مسخرة لتفعيل القارئ وتحريكه ودفعه نحو هذا النص العظيم بغية المقاربة والمساءلة والافتراض. ولعلها السمات التي تحملها جمالية التلقي في مسعاها القرائي الذي من شأنه أن يضع النص في مواجهة المتلقي من جهة، وأنْ يحوِّله إلى دلالة من جهة أخرى" [٥٦] فعليه يكون متلقي القرآن ليس متلقياً ساكناً للنَّص، بل هو عنصر مفكر مُتدبر بالنص القرآني، وبما يحويه من مميزات تختلف عن غيره من النصوص ويلتمس بنفسه مناحي الإعجاز ويستنتج ذلك من النص نفسه، إذْ يوقظ القرآن الوعي ويُنبه الفكر، ليكون القبول قائماً على الوعي وإعمال الذهن، لا أن يكون مُستقبلاً لنَصٍّ مُغلق.

وما دام القرآن كتاباً للبشرية كلها منذ نزوله حتى قيام الساعة وما دامت أحكامه وتشريعاته صالحة لتقويم أحوال الخلق عموماً، فهو مشروع قراءة وتأويل دائمان، فالقارئ الجاد هو الَّذي يضع جواباً تكون آفاقه أكبر مِن الجواب لو وضع في لغة محدودة، ولا يمكن أيضًا أنْ ينبثق القارئ المتحقق في الإنتاج إلا بتوفير الطاقة الجمالية للنص [٥٧]

ولذلك كان التفاعل "عملية تواصلية تتم في المستوى الثاني بين نص قادر على أنْ يستوعب قارئه وقارئ قادر على أن يستوعب نصه"[٥٨]. ومن ثم فكثرة التأمل في النص القرآني تجعله ينطق بمعان قد تختلف من إنسان لآخر نتيجة لطبيعة التفاعل بين المتلقي والنص، ولطبيعة الكفاءة التي يملكها المتلقي، ولتجارب المتلقي، ومع تطور تجربة القارئ يتطور النص فالوسائل التي أُتيحت لقارئ النص القرآني في صدر الإسلام غير الوسائل المتاحة في العصر الحالي ومن ثم تطور فهم النص بما يتلاءم وهذه الوسائل، بل قد تختلف كفاءة عدد من المتلقين لنص واحد في وقت واحد [٥٩]، وهذا نابع من سعة القرآن الكريم، فإنَّ سعة معاني

٥٥- ينظر: محمود عباس عبد الواحد، قراءة النص وجمالية التلقي:١٤.
٥٦- شارف مزاري، جمالية التلقي في القرآن الكريم: ١٣٦، ١٣٧.
٥٧- ينظر: يوفرومة حكيمة، المتلقي في الخطاب القرآني (اطروحة دكتوراه) اشراف امنة بلعلي:١٧.
٥٨- بلمليح ادريس، القراءة التفاعلية:٦.
٥٩- الفقي، علم اللغة النصي: ٢/ ٢١٥.

القرآن، التي تكتشف من قبل المتلقي ، نابعة من ذات القرآن وليست إضافات يضيفها كل ناظر فيه أو قارئ، وهذا مما يؤثر في بطئ التقبل وسرعته، وكذا الاستجابة، فمن كانت بصيرته أقوى ومعرفته أبلغ كان القبول منه أسبق، ومن كانت بصيرته ومعرفته أقل كان أبطأ إلى القبول.

فيتبين للبحث أنَّ نظرية التلقي الصحيحة التي لها الأثر الفاعل في التفسير التحليلي للقرآن الكريم لا تعتمد على ركن واحد من أركان التلقي ويترك الآخر ألا وهو مبدع النص وهو الله تعالى والنص وهو القرآن الكريم والمتلقي للنص وهو الإنسان فكل ركن يكون مشتركاً مع الآخر في عملية فهم النص، لكن الاعتماد على المتلقي يكون بشكل واضح فلا يعقل أن ينشئ المخاطِب كلامه من دون مخاطَب يكون نقطة التواصل فهو يستند إلى آفاق معرفية لإنشاء مشروعه عند قراءة النص القرآني، يشكل بذلك أنظمة فنية وثقافية وجمالية ومعرفية، تعكس آفاق المتلقي من جهة، وتظهر المراتب المتفاوتة لهذه الأنظمة والمفاهيم من جهة اخرى وتظهر عملية الحوار بينهما فنرى آثار المبدع ظاهرة عند المتلقي عن طريق فهمه للنص.

فهذه النظرية تفرض في عملية إنتاج فهم النص في الاشتراك بين المبدع والمتلقي، وبما أنّ القرآن الكريم بوصفه خطاباً إلهياً من حيث المصدر فهذا لا يعني عدم قابليته للتحليل بما فيه من سياقات اجتماعية وثقافية وتاريخية وغيرها بل يخضع لتحليل مفرداته وعباراته لتوجيه الدلالة وبما أنَّه موجه للعام والخاص من الناس مع تفاوتهم، فإنَّه يمكن القول بأنَّ "كثرة التأمل في النص القرآني تجعله ينطق بمعان قد تختلف من إنسان لآخر نتيجة لطبيعة التفاعل بين المتلقي والنص، ولطبيعة الكفاءة التي يملكها المتلقي، ولتجارب المتلقي، ومع تطور تجربة القارئ يتطور النص فالوسائل التي أتيحت لقارئ النص القرآني في صدر الإسلام غير الوسائل المتاحة في العصر الحالي ومن ثم تطور فهم النص بما يتلاءم مع هذه الوسائل، بل قد تختلف كفاءة عدد من المتلقين لنص واحد في وقت واحد" [٦٠] وعليه فتأمل النص واجب لكي يحصل عن طريقه على معرفة للنص وفهمه.

المطلب الثالث مراتب تلقي النص القرآني وأثرها في التفسير

إنَّ حكمة الله سبحانه وتعالى قضت أنْ يكون القرآن الكريم كتاباً خالداً لهداية البشرية جمعاء؛ أي إنَّ دلالات هذا النص المعطاء يجب أنْ تكون نافذة وصالحة لكل زمان ومكان، لكنَّه عزَّ وجلَّ أعطى في قُبال ذلك مجالاً للجهد البشري لكي يقرأ ويتدبر ويفكر ويجتهد، فيستنبط دلالات وأحكام وتشريعات من القرآن الكريم، فيربطها بواقعه ومستجدات عصره، وهذا الجهد لا يكون في الثوابت التي لا تحتمل التأويل كما في المحكمات والآيات الدالة على الربوبية والألوهية والنبوة والرسالة وغيرها[٦١]، بل يكون الاجتهاد في

٦٠- صبحي ابراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية: ٢/٢١٥.
٦١- ينظر: صلاح الصاوي، الثوابت والمتغيرات في مسيرة الإسلامي المعاصر:٣٥-٤٤.

المتغيرات التي تحتمل التأويل بسبب عدم وجود دليل قاطع عليها سواء من نص صحيح، او اجماع صريح، التي أوردها العلماء في باب الاجتهاد[٦٢]، وهذا الأمر يتطلب أنْ يكون بقراءة صحيحة من المتلقي والتمعن بالأساليب الجمالية الراقية في النصوص القرآنية التي جعلها الله محلَّ الاتعاظ والاسترشاد والهداية [٦٣].

لكنّ هذا الأمر يختلف من متلقٍ لآخر، فمن المعلوم أنَّ لكل خطاب أدوات خاصة يستعملها المخاطِب بحيث تتلاءم مع المخاطَب والظروف المحيطة به، وذلك لاختلاف مستويات الفهم بينهم، ولا يصح التعامل بمستوٍ واحد بين المتلقين للنص القرآني، فهو يعطي توجيهاته لكل بنى الإنسان، ونظراً لتفاوت مستويات المتلقين والعائدة إلى الفهم الإنساني، فإنَّ المتلقين يختلفون في فهمهم لتفسير ما تلقوه من النص القرآني[٦٤].

لذا نجد القرآن الكريم نزل بأساليب متنوعة في توجيهاته وخطاباته بما يتلاءم ومستويات المتلقين له، فهو يخاطب كل شخص بقدر استعداده وقابليته ويعرض له الدليل المناسب الذي يليق بقابلية ذهن المتلقي، فتارة على شكل مثل أو قصة ليستفيد منه الأفراد الاعتياديون، وهذه الحالة واضحة جلية في بداية تلقي الناس للقرآن فبين منكر او مُصدق، ولم يشغلهم في بادئ الأمر ما وراء النُّصوصِ، بل كان جُلَّ تركيزهم على القراءة الأولى التي سحرتهم فتلك مرحلة التذوق الفطري للفنون، فركز النَّص القرآني على الاستجابة الفطرية للنص عن طريق اللفظ، الفواصل، التصوير للمشاهد وإلى غير ذلك، والانطباع العام الذي يتركه كُلُّ نص في ذهن المتلقي، فكان التَّأثير أولا يكمن في النَّسق القرآني ذاته لا في الموضوع، فالآيات المكيّة مثلاً كانت تمتاز بقصرها وقوة الألفاظ وإيجاز اللفظ مع بلاغة المعنى وتجانسها الصوتي، لأنَّ المقام كان لمحاججة المعانِدين، الذين لا يرغبون سماع القرآن خوفاً أو كبراً، ولا تصلح الآيات الطوال لمثل هذا المقام.

مستوى التلقي عند المعصوم –عليه السلام–

لقد أعطى القرآن الكريم (التلقي) أهميَّة في انساقه التعبيرية، فاستعملها بمجالات متعددة، وكل استعمال له دلالة وتوجيه للأمة، وكان ذلك عن طريق الرسول محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– فهو أول متلقٍ للخطاب القرآني بصورة مباشرة، كما في قوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[٦٥] فهذه دلالة على دوام التلقي للنص[٦٦]، فقد تحمّل –صلى الله عليه وآله وسلم– في سبيل دعوة الله تعالى الكثير من الأذى والتعب والصبر والجهاد الأمر الذي جعل له –صلى الله عليه وآله وسلم– أثرًا كبيراً ورئيساً وفاعلا ليس في التلقي فقط بل في تبيانه للناس، وذلك بالقول والعمل والحث عليه والترغيب فيه والترهيب من تركه، فقد كان مؤهلاً لهذا التلقي ولو لم يكن مؤهلا لما ألقي عليه ما ذكره الله في ذلك المقام. فقال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا

---

[٦٢]– ينظر: المصدر نفسه:٣٧.
[٦٣]– ينظر: يادكار لطيف الشهروزي، جماليات التلقي في السرد القرآني:٥٥–٥٦.
[٦٤]– ينظر: ايمان عبد زيد، مستويات التلقي للخطاب القرآني عند المفسرين (رسالة ماجستير) باشراف محمد البكاء:٨٨.
[٦٥]– النمل: ٦.
[٦٦]– القرطبي، جامع الأحكام: ١٣/ ١٥٥.

مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٦٧] لبيان عظمة ما انزل الله[٦٨]، وهذا يكشف أنَّ النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– على قدر كافٍ من الكفاءة والمسؤولية والقدرة لتلقي القرآن العظيم والعمل به وحفظه وصونه وبيان تعاليمه للناس والالتزام بتلك التعاليم، التي هي الهدف الرئيس منه وبالكيفية التي أمر الله بها. وجاء الخطاب الالهي للرسول الاكرم مؤكدًا أنَّ هذه التعاليم لا يعلمها إلا الله ثم يعلّمها رسوله –صلى الله عليه وآله وسلم– ليقوم الرسول بتفسيرها وتبيانها للناس، فقال تعالى:﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[٦٩] وعن طريق ذلك يتبين أنَّ الله تعالى علّم رسوله الكريم –صلى الله عليه وآله وسلم– تفسير القرآن وكيفية تبيانه للناس. وهنا لا بد من الاشارة الى أنَّ هذا التبيان والتفسير يشمل كل ما يتعلق بالقرآن وعلومه من قراءة وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه وعام وخاص ومطلق ومقيد وغير ذلك من العلوم التي تدخل في تفسير القرآن الكريم.

فخطاب النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– في كثير من الآيات كان بألفاظ مختلفة ولكل لفظ غاية وإشارة معينة يريدها عزّ وجلَّ، فتارة يكون الخطاب موجهاً له –صلى الله عليه وآله وسلم– مباشرة وهو المعني بذلك كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [٧٠] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٧١]،وقال:﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [٧٢]،وقال:﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ [٧٣]، وتارة أخرى يكون الخطاب موجهاً للأمه وهم المعنيّون بذلك، ولكن اللفظ مفرد باسم النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–كما في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [٧٤]، أي هو خطاب له لفظاً، وهو لأمّته[٧٥]، وقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ [٧٦] فهنا تخصيص الخطاب بالنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– لفظاً، وعمومه لأمته، فالقصد هنا تشريف له واظهار لجلالة منصبه فهو بمثابة الرئيس لهم [٧٧] ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا

---

[٦٧]– الحشر: ٢١.
[٦٨]– الطوسي، التبيان في علوم القرآن: ٥٥٧/٩.
[٦٩]– القيامة: ١٦– ١٧ – ١٨ – ١٩.
[٧٠]– المائدة: ٦٧.
[٧١]– الأنفال: ٦٤.
[٧٢]– المزمل: ١.
[٧٣]– المدثر: ١.
[٧٤]– الأحزاب: ١.
[٧٥]– ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير:٥٤/٤.
[٧٦]– الطلاق: ١.
[٧٧]– ينظر: الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٥٩/٢١.

أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [٧٨]، وهذه الاختلافات في طرق الخطاب كلها لها دلالات تفسيرية معينة وأنها موجه لخاتم الأنبياء، وهو الأقدر من غيره للتعرف إلى مراد الله بمعانيه ومراميه سواء كان الخطاب له فيُطبق على نفسه أولاً ما تلقّاه من الباري لأنه بشر أيضاً، وسواء للناس فيتحول النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– من أثر المتلقي للنص إلى أثر المبلغ لهذه الأمانة من دون نقصان ولا زيادة، وذلك ببيان الأوامر والنواهي والمعاني والعلوم التي أوحاها من غير تبديل ولا تغيير[٧٩] إذ قال تعالى﴿..وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٨٠]، وعبّر القرآن الكريم عن عملية التواصل بين مبدع النص القرآني والمتلقي بالإلقاء في قوله تعالى:﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [٨١] وتُكمل هذه العملية (بالقول) أي الكلام؛ لأنَّ الغرض منه هو التفكر والتبيّن في الآيات للحصول على تحليل دقيق لجميع ما أنزله الله عن طريق المتلقي والمفسر الأول للقرآن الكريم، فيُعدُّ الطريق الحق الذي أرشدنا إليه الباري عزَّ وجلَّ، فمنه يعرف الصواب ويعرف مراد الله تعالى.

ونجد أهل البيت –عليهم السلام– لا يختلف تلقيهم للنص القرآني عن تلقي رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– وهذا واضح جلي عِبْرَ تفسيرهم النصوص القرآنية، هو تفسيره بالصورة الصحيحة لمعرفة تعاليم الله التي يريدها، فمن كان مؤهلاً للتلقي كان فهمه لما تلقّاه صحيحاً، فهم تلقوه من الله عز وجل و رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– بدليل ما ورد في رواية إبراهيم بن عمر[*] حينما سأل الإمام الصادق –عليه السلام– فقال: أخبرني عن العلم الذى تعلمونه أهو شيء تعلمونه من أفواه الرجال بعضكم من بعض، أو شيء مكتوب عندكم من رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–؟ فقال–عليه السلام–: ((الأمر أعظم من ذلك أما سمعت قول الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه: ﴿ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٨٢]، قال: قلت بلى، قال: فلما أعطاه الله تلك الروح علم بها وكذلك هي إذا انتهت إلى عبد علم بها العلم والفهم تعرض بنفسه–عليه السلام–))[٨٣].

والروح في الآية المباركة هي الملك[٨٤]، فيختص بهم، كما هو حال الأنبياء –عليهم السلام–، مع الفارق لكونه ليس بالوحي الرسالي.

---

[٧٨]– التوبة: ٧٣.

[٧٩]– ينظر: محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن: ١/ ٥٣.

[٨٠]– النحل: ٤٤.

[٨١]– المزمل: ٥.

[*]– إبراهيم بن عمر اليماني الصنعاني، شيخ من أصحابنا، ثقة، روى عن أبي جعفر وأبي عبد الله –عليهما السلام–. ينظر: النجاشي، رجال النجاشي:٢٢.

[٨٢]– الشورى: ٥٢.

[٨٣]– الصفار، بصائر الدرجات:٤٧٩.

[٨٤]– ينظر: الطبري، جامع البيان:٢١/ ٥٦٠، الطبرسي، مجمع البيان: ٩/ ٥٠، القرطبي، جامع الاحكام: ٣٧/١٦.

وإنَّ الملائكة، والروح تنزل في كل ليلة قدر، وهو قوله تعالى:﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾[٨٥]، أي تنزل إلى الأرض[٨٦]، فهي تنزل على الإمام –عليهم السلام–، ويدفعون إليه ما قد كتبوه[٨٧]، فقد سُئِلَ الإمام الباقر –عليه السلام– عن ليلة القدر، فقال–عليه السلام–: ((وكيف لا نعرف ليلة القدر والملائكة يطوفون بنا فيها)) [٨٨]، فالملائكة يتنزلون في بيوتهم، ويطوفون عليهم، ويدفعون لهم ما قد قدر في تلك السنة، وغيرها من الأدلة التي تثبت أنَّ علمهم –عليهم السلام– لدنّي من الله.

فضلاً على ذلك فإنَّهم تلقوا القرآن ومعانيه من رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– فهو خصهم بذلك من دون غيرهم؛ لأنَّه يعلم أنَّ الناس ليسوا سواسية بالفهم عند تلقيهم النص، وعليه فقسم تفسيره للقرآن الكريم بحسب المستوى على مستويين المستوى الأول ما وضحه وبينه لعامة الناس، وأعني بهم من لا يدخل في جملة أهل البيت –عليهم السلام–، فكان رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– يبين لهم ما أشكل عليهم، وما التبس في أذهانهم من القرآن الكريم من لفظ أو معنى من دون الغور في تبيان ذلك المعنى مما قد يلتبس على المتلقي منهم؛ وذلك لأنَّ أسرار القرآن وعلومه يصعب على عامّة الناس حملها، والمستوى الثاني ما اوضحه وبيَّنه لخاصته من أهل البيت –عليهم السلام–، فإنَّ للقرآن حملة خاصين أعدهم الله إعداداً مميزاً بما يتمتعون به من مؤهلات لذلك الإعداد ليحملوا هذه العلوم وهم أهل البيت –عليهم السلام–ولا أقول إنَّ القرآن لا يفهمه أي متلقٍ له، ولكن إنَّ للمتلقى مستويين من الفهم مستوى عامٌ يفهمه عامة الناس ومستوى خاصٌ لا يفهمه إلا أهل البيت –عليهم السلام–، وهو الفهم الحقيقي للقرآن كما في قوله تعالى ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ فقال الامام علي بن ابي طالب –عليه السلام– لقد كنت الأذن الواعية، وفي عيون أخبار الرضا –عليه السلام– من الاخبار المجموعة بإسناده عن الإمام علي –عليه السلام– قال: ((قال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– في قول الله عز وجل ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ قال: دعوت الله عز وجل ان يجعلها أذنك ياعلي)) وروى أيضًا عن الطبري قوله:(قرأ رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– : (وتعيها أذن واعية) ثم التفت إلى علي فقال: ((سألت الله أن يجعلها أُذُنك))، قال علي –عليه السلام–: فما سمعت شيئا من رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– فنسيته)) وهذا كله دلالة على أنَّ تلقي المعصوم –عليه السلام– للنص القرآني يعطي الفهم والبيان الذي يريده الباري عزَّوجلَّ بلا إشكال.

الخاتمة

إذن من هنا يتضح أنَّ الأحاديث الوارة في حصر فهم القرآن الكريم بالنبي–صلى الله عليه وآله وسلم– والأئمة المعصومين –عليهم السلام– تعني أن فهم حقيقة القرآن الكاملة منحصرة بهم ويأتي بعدهم باقي البشر بمستوى فهم القرآن

---

[٨٥]– القدر: ٤.

[٨٦]– ينظر: الزمخشري، الكشاف:١٣٦٩/٢، الطبرسي، مجمع البيان:٣١٥/١، الرازي، مفاتيح الغيب:٢٣٣/٣٢، القرطبي، جامع الاحكام:٩٦/٢٠.

[٨٧]– ينظر: القمي، تفسير القمي: ٣/ ١١٦٩.

[٨٨]– القمي، تفسير القمي:٧٦١.

ومعرفته مرتبين بحسب الأمثل فالأمثل، وإلا لانتفت الحكمة من نزول القرآن ولسدَّ باب المعرفة بعلومه وإلا لانتفت الحاجة الى تفسيره أيضًا، وانحصر منهج التفسير بمنهج التفسير بالمأثور عنهم فقط.

المصادر

- القرآن الكريم
- الحر العاملي، وسائل الشيعة، ط١ ١٤٠٥، الناشر: ادب الحوزة، قم- ايران.
- محمد بن يعقوب الكليني الرازي ابو جعفر (ت٣٢٩هـ)،الفروع من الكافي، تحقيق: علي الأكبر الغفاري، ط٣، دار الكتب الإسلامية.
- محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، الطبعة الاولى، مؤسسة الصادق، طهران، د.ت.
- محمد الجواهري، المفيد في معجم رجال الحديث، دار الاسراء للنشر، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية ١٤٣٢هـ.
- الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، الطبعة الاولى، مؤسسة الصادق، طهران، د.ت.
- محمد باقر تقي المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الطبعة الأولى، مؤسسة الوفاء، بيروت – لبنان.
- هاشم البحراني، مقدمة تفسير البرهان، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م) مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان.
- الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، تفسير مجمع البيان، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين الاخصائيين، الطبعة الاولى ١٤١٥هـ، طبع ونشر: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان.
- حسن البروجردي (ت ١٣٤٠هـ)، تفسير الصراط المستقيم، ١٤١٦-١٩٩٥، مطبعة الصدر، قم.البزدوي، كشف الابرار عن أصول فخر الإسلام.
- أبو القاسم الخوئي،البيان في تفسير القرآن، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٣٩٥ هـ، بيروت.
- أمينة طيبي، مقالة:النص القرآني وأنواع المتلقين،عود الند:مجلة ثقافية فصلية، العدد ١٢لسنة ٢٠١٩.
- جلال الدين السيوطي، ١٩٩٩، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: فواز أحمد زملي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- ابن منظور، لسان العرب، ط٧، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧ م.
- محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١ ٢٠٠١م

- فخر الدين الطريحي (ت ١٠٨٥ هـ)، مجمع البحرين، تحقيق: أحمد الحسيني، ط٢، ١٤٠٨،مكتب النشر للثقافة الإسلامية.
- كريمة بلخامسة، إشكالية التلقي في اعمال كاتب ياسين (اطروحة دكتوراه) باشراف امنة بلعلي
- صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.
- ايمان عبد زيد، مستويات التلقي للخطاب القرآني عند المفسرين (رسالة ماجستير) باشراف محمد البكاء.
- عبد الإله حوري الحوري، اسباب اختلاف المفسرين في تفسير آيات الأحكام (رسالة ماجستير) باشراف احمد يوسف سلمان.
- حميد الحميداني، المقصدية ودور المتلقي عند عبد القادر الجرجاني:بحث نشر ضمن أعمال ندوة قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية.
- فرح باقر احمد الفاضلي، العدول في القرآن الكريم على وفق نظرية التلقي – دراسة منهجية نقدية – (بحث منشور على الشبكة العنكبوتية) http://www.maqalaty.com/٢٧٦٧html.
- حسين الحاج حسن، النقد الأدبي في آثار أعلامه، المؤسسة الجامعية للدراسات والطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٦م.
- صلاح الصاوي، الثوابت والمتغيرات في مسيرة الإسلامي المعاصر.
- محمد بن احمد بن أبو بكر الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الطبعة الثانية، (١٩٨٥م – ١٤٠٥هـ)،دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.
- عبد الرحمن ابن ابي الحسن علي بن محمد القرشي المعروف بابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير،ط،١، المكتب الاسلامي–دمشق–عام١٩٦٤م الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.
- محمد بن الحسن بن فروخ (ت:٢٩٠هـ)، بصائر الدرجات الكبرى: تصحيح: ميرزا محسن، منشورات الاعلمي ١٤٠٤هـ، مطبعة الاحمدي، طهران.